مراجعــة كتاب

BOOK REVIEWS

مراجعة كتاب

بلاغة الإعجاز وحدود التأويل

تأليف: جميلة بكوش

مراجعة: عبد الله علي الهتاري

أستاذ اللغة والنحو والبيان القرآني، كلية الآداب والعلوم، جامعة قطر

a.alhetari@qu.edu.qa

BOOK REVIEW

Jamila Beckouche. *Eloquence of Quranic Miracles and the Limits of Interpretation* (Doha: Qatar University Press, 2020) Pages: 323; ISBN: 9789927139130 (Print), 9789927139277 (electronic); Paperback

Reviewed by:

Abdullah Ali Al-Hetari

Associate Professor of Language and Grammar,
College of Arts and Sciences, Qatar University

Cite this article as: Abdullah Ali Al-Hetari, "Book Review: '*Eloquence of Quranic Miracles and the Limits of Interpretation*' by Ziauddin Jamila Beckouche", *Journal of College of Sharia and Islamic Studies*, Volume 40, Issue 1, 2022

https://doi.org/10.29117/jcsis.2022.0324

© 2021, Abdullah Ali Al-Hetari. Published in *Journal of College of Sharia and Islamic Studies*. Published by QU Press. This article is published under the terms of the Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0), which permits non-commercial use of the material, appropriate credit, and indication if changes in the material were made. You can copy and redistribute the material in any medium or format as well as remix, trans.form, and build upon the material, provided the original work is properly cited. The full terms of this licence may be seen at https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/.

تناولت الكاتبة جميلة بكوش في كتابها «بلاغة الإعجاز وحدود التأويل»، الصادر عن دار نشر جامعة قطر عام ٢٠٢٠ في ٣٢٣ صفحة، موضوعًا في غاية الأهمية؛ لأنه يتعلق بمفهوم الإعجاز القرآني، قديمًا وحديثًا، وهو من الموضوعات التي كُتب فيه الكثير من الكتب والدراسات والأبحاث؛ لكن الجديد لدى الباحثة، أنها تتبعت مفهوم الإعجاز لدى المتقدمين، وحاولت عرض ما استجد في قراءات المعاصرين؛ لتقف على مظاهر التجديد والإضافة لديهم.

وقد وفقت الكاتبة في اختيار العنوان «بلاغة الإعجاز وحدود التأويل» إذ قصدت منه تحديد مفهوم الإعجاز من خلال القراءتين؛ القراءة البيانية لدى المتقدمين والمتأخرين، التي انطلقت من البلاغة العربية في معرفة الإعجاز، والقراءة التأويلية المعاصرة، التي انطلقت من التأويل، وانفتاح النص القرآني لديها للتأويل، ولكن؛ ما حدود هذا التأويل، وما ضوابطه؟ فأتى العنوان جوابًا مناسبًا ودقيقًا.

والكاتبة جميلة علوش، أستاذة البلاغة والنقد المشارك بجامعة ابن خلدون بالجزائر، صاحبة اختصاص عميق في الدرس البلاغي؛ تناولت هذا الموضوع من معرفة واختصاص، وذلك وفق خطةبحثية منظمة ومتدرجة في التسلسل التاريخي والمعرفي؛ إذ قسمت موضوع دراستها وفق محورين رئيسين؛ تناولت في الأول منهما مفهوم الإعجاز وآلياته، في ضوء القراءتين البيانية والتأويلية. فدرست مفهوم الإعجاز في التفاسير البيانية الموروثة، وآلياتها المعرفية، ومفهوم الإعجاز في ضوء الدراسات البيانية المعاصرة، ومرتكزاتها المعرفية، ومنهجها العملي الذي يجمع بين شرعية الوحي والتطور المعرفي، كما هو حاصل عند سيد قطب في «ظلال القرآن»، وعائشة عبد الرحمن في «التفسير البياني في القرآن الكريم».

والملاحظ أن الكاتبة الفاضلة قصرت تناولها دراسة مفهوم الإعجاز لدى المدرسة البيانية المعاصرة على سيد قطب وبنت الشاطئ، وكان الأولى أن تضيف مبحثًا آخر تتناول فيه مفهوم الإعجاز لدى أديب العربية مصطفى صادق الرافعي، الذي أسهم في ذلك إسهامًا بارزًا، في كتابه الذي يعد مرجعًا في بابه «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية»، وكذلك محمد عبد الله دراز وكتابه «النبأ العظيم»، الذي اهتم اهتمامًا بالغًا بالوقوف على مفهوم الإعجاز ومظاهره في كتابه، وكذلك لو أضافت مبحثًا آخر للمدرسة الشاكرية ومفهوم الإعجاز لدى شيخها محمود شاكر وتلامذته، ولعل عذر الكاتبة في ذلك الميل إلى الإيجاز في الدراسة دون التوسع، ولو أشارت إلى ذلك إشارات موجزة لكان أكمل وأشمل للدراسة.

ثم تناولت الكاتبة مفهوم الإعجاز في ضوء القراءات التأويلية، عند أشهر أعلامها المعاصرين؛ نصر حامد أبو زيد، ومحمد عابد الجابري، ومحمد أركون، وعلي حرب. وفي المحور الثاني تناولت مفهوم الإعجاز في ضوء نماذج من الدراسات المعاصرة، عند سيد قطب من رموز القراءة البيانية، وكذلك عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ. ومحمد أركون بكونه من رموز القراءة التأويلية.

وقد أبدعت الكاتبة في تناولها قراءة سيّد قطب بالتفصيل، من خلال كتابيه «التصوير الفني»، و«في ظلال القرآن»، وأبرزت تأثر سيّد بعبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم، وإبداعه في نظرية التصوير الفني، وكذلك ما أضافته بنت الشاطئ من إضافات نوعية في كتابيها «التفسير البياني» و«الإعجاز البياني للقرآن».

ثم خلصت الكاتبة إلى خاتمة قيّمة، عرضت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها، من هذه النتائج؛ أن القراءة البيانية المعاصرة لمفهوم الإعجاز، أفادت من التراث اللغوي والديني، وأضافت تجديدًا، كما هو حاصل عند سيّد قطب في نظريته التصوير الفني، وتمثل جهوده نموذجًا رائعًا للقراءة البيانية المعاصرة للقرآن الكريم؛ لأنه منهج وسطي جمع بين الغرض الديني، وتقديس النص القرآني، والانطلاق في ذلك من مفهوم الوحي، وضوابط فهم النص؛ وكذلك ما أضافته بنت الشاطئ في دراستها التحليلية السياقية لألفاظ القرآن، وتتبع الفروق الدلالية بين المفردات القرآنية في سياقاتها المختلفة، في كتابيها الإعجاز البياني والتفسير البياني. وقد تأثرت في ذلك بأستاذها وزوجها أمين الخولي مؤسس مدرسة الأمناء، الذي دعا إلى التفسير الأدبي للقرآن الكريم.

وقد تجاوزت الدراسات البيانية للقرآن الكريم لأصحاب هذا الاتجاه، بلاغة المفردة والجملة إلى الدراسة النصية، واكتشاف الخصائص الفنية، من خلال الوحدة الموضوعية التي تربط بين الآيات والسور، والوحدة البنائية التي تشكل بنية الخطاب القرآني، وتعد وجهًا من وجوه إعجازه.

وفي القراءة التأويلية عند المعاصرين؛ توصلت الكاتبة إلى أن القراءة التأويلية التفكيكية المعاصرة، دعت إلى القطيعة الكاملة مع التراث المعرفي الإسلامي، وعدم اعتباره مرجعية لتأويل القرآن، وأن هذه القراءات متأثرة بمناهج غربية، ولا تقر في معظمها بإعجاز القرآن، وأنها في حقيقتها انطلقت من أيديولوجية فكرية، خالية من العقيدة والإيمان.

واتسم منهج الكاتبة بالعمق والتحليل للدراسات السابقة والمعاصرة، وتمحورت إشكالية الدراسة لديها، حول منهج فهم النص القرآني، وطرائق قراءاته في الدراسات المعاصرة، لقضية الإعجاز، وما القراءات التي قدمتها هذه الدراسات؟ وهل هي امتداد لجهود القدماء في الشرح والتفسير؟ وما حاجتنا إلى هذه الدراسات المعاصرة، أهي ضرورية أم ترف معرفي وفكري؟ وقد حاولت الكاتبة أن تقدم من خلال كتابها إجابات علمية عن تلك الأسئلة المطروحة في طريق الدراسة والبحث، وعرضت الكاتبة تصورًا لتكامل آليات المعنى والتفسير والتأويل، والفروق بينها، في مقاربة توصيفية، منطلقة في ذلك من مفهوم التأويل عند علماء التفسير المتقدمين والأصوليين.

وخاضت الكاتبة لُجَّة الآراء العلمية في تتبع دراسات الإعجاز وآفاق التأويل المعرفي لدى المتقدمين والمحْدثين، في وعي تام بما تتناوله وتعرضه، وتزيل اللَّبس حول كثير من مصطلحاته، ومشكلات فهمه، وظهرت شخصيتها العلمية بارزة في إبداء الرأي والنظر، كما حصل عندها في عرض الآراء حول التفريق بين مصطلحي التفسير والتأويل، ثم الوصول إلى رأي علمي في ذلك كله: «بأن التفسير يقوم على الإظهار والبيان، وأما التأويل فيعنى بما يرد في النص محتملًا

لأكثر من وجه، ووسيلته في ذلك إعمال الاستنباط والاجتهاد المحتكمين إلى أدلة يدعمها النص ويؤيدها»، وهي في ذلك تنطلق من مفهوم العلماء المتقدمين في العرض، وما أضافه المحْدثون من فهم جديد للتفريق بين المصطلحات. وفي الوقت نفسه نجد الكاتبة ترجع إلى المرجعية الأصولية لدى علماء أصول الفقه؛ لاهتمامهم البالغ والعميق بدراسة مفهوم النص ضمن قواعد معرفية تضبط ذلك، فلا يشطح الفهم بعيدًا في مدلول النص دون ضوابط له.

وأوضحت مفهوم الإعجاز من منظور الإحساس والذوق إلى الاستدلال، ولم تكتف بدراسة مفهوم الإعجاز من داخل النص القرآني، بل تناولت ما يتعلق به من خارجه أيضا، من أسباب النزول ومواقعه، وبحثت آليات الدراسات التأويلية المعاصرة، في محاولة منها؛ لإيجاد مقاربة بينها وبين دراسات التراث، وناقشت بوضوح مقولة تاريخية النص الديني، ونسبية النص الديني، لدى القراءات المعاصرة بعمق، وتحليل معرفي بارز في كتابها، ويحسب لها الجهد العلمي البارز في تناولها بالعرض والتحليل أشهر القراءات المعاصرة في الدراسات التأويلية، عند أشهر أعلامها مثل: نصر حامد أبو زيد، ومحمد أركون، وعلي حرب.

ولحساسية موضوع دراسة القراءات التأويلية المعاصرة، التي تعاملت مع النص القرآني بعدّه نصًا تاريخيًا، وبنية لغوية أدبية منزوعة القداسة؛ فذلك يقتضي الحذر الشديد في التعامل مع هذه المناهج التأويلية، والوعي التام بأبعادها المعرفية وجذورها المرجعية، وهو ما ظهر لدى الكاتبة في الحذر والتناول.

وأما ما يتعلق بالأسلوب؛ فقد كان أسلوب الكاتبة، في التعبير عن الفكرة، ومحاولة الكشف عنها وإيصالها، واضحا ورصينا، وسهل العبارة للقارئ، وظهرت لديها أحيانا بعض الفجوات الأسلوبية في التعبير والتراكيب والجمل، وذلك في النقولات عن أصحاب القراءة التأويلية المعاصرة؛ لتأثرهم بالترجمات عن النظريات الغربية، فظهر لديهم غرابة في الأسلوب، وضعف في سبك العبارات.

وقد تنوعت مصادر الكاتبة والمراجع التي اعتمدتها، تنوعا يدل على الشمول وسعة الاطلاع بين القديم والحديث، والدراسات والأبحاث والرسائل الجامعية، وهو ما تقتضيه طبيعة موضوعها في اتساعه وشموله، واتسمت بالأمانة العلمية في التوثيق والنقل.

وختامًا أدعو الأكاديميين، ورواد المعرفة والمهتمين، وعموم القراء، أن يطلعوا على هذا الكتاب الرصين في بابه؛ فقد جمع المتناثر، وفصَّل الموجز، وأوجز المسهب، وأماط اللثام عن المُعْتِم، فالرجوع إليه يُغني، والاطلاع عليه يُشفي، وهو إضافة نوعية في بابه، سيجد فيه كل سائل مطلبه، وكل مستفسر جوابه.